المحاضرة الرابعة: علم الاتصال

الاتصال قبل كل شيء هو عملية نفسية اجتماعية ضرورية للإنسان. وكعلم يعنى الاتصال بدراسة تبادل المعاني بين الأفراد في المجتمع عبر نظام مشترك من الرموز. لذا فإن كل ميدان أكاديمي له علاقة بدراسة الإنسان والسلوك الإنساني، لابد أن تكون له علاقة على نحو ما بالاتصال، ومن هنا فإن الميادين التي تبحث في الكشف عن ظواهر الاتصال ميادين متعددة، منها علم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والسياسة والاقتصاد واللغويات والتربية والرياضيات والهندسة، وغيرها. على أن تقدم وسائل الاتصال الجماهيري وظهور عدد من العلماء الذين أبدوا اهتماماً بالكشف عن ظواهر الاتصال، أدى أخيراً إلى أن يستقل هذا الميدان عن الميادين الأخرى المختلفة، ويظهر إلى حيز الوجود علماً مستقلاً أخذت الجامعات تدرسه الآن تحت أسماء مختلفة كالاتصال Communication أو الاتصال الجماهيري Mass communication وأحياناً تبقي له الاسم القديم المعروف بالصحافة Journalism.

وبصورة عامة، فإن ارتباط ميدان الاتصال بالميادين الأخرى، الإنسانية والاجتماعية والتطبيقية، يظهر بما لا يدع مجالاً للشك ضخامة الميدان وسعته وتشعب مجالاته، فارتباط الاتصال بالعلوم الأخرى التي تتداخل فيه، يعمل من ناحية على إغنائه وإثرائه بما قد يستمد من تلك العلوم من مناهج تحليل وبحث ونظريات ونماذج. لكننا من ناحية ثانية، أن سعة الميدان تسبب في خلق صعوبات وتعقيدات ليس أقلها اضطرار طالب الاتصال إلى البحث في مراجع

ومصادر مختلفة ومتعددة. ففي حين نجد أن طالب الكيمياء مثلاً يتمكن أن يحصر قواعد مادته الأساسية في مجموعة أبحاث، فإننا في المقابل، نجد أن دارس الاتصال، الذي يرغب في تلخيص المعرفة بميدان الاتصال مضطر لأن يبحث في بطون ستة أو سبعة ميادين، مختلفة وربما يجد أيضاً أن هذه الأبحاث متشبعة تذهب في كل اتجاه.

من هنا، فإن الاتصال علم متشعب الخلفيات Inter- disciplinary يقترب من الميادين الأخرى ذات العلاقة به، فيأخذ منها ويتأثر بنظرياتها إلا أنه في الوقت نفسه يستبعد عنها مؤكداً استقلاليته كعلم قائم بذاته له نظرياته ومناهجه وأبحاثه الخاصة به، والحقيقة التي يتطلب أن تبقى ماثلة للعيان هي أن الاتصال علم حديث لا يتجاوز عمره الحقيقي أكثر من نصف قرن، في حين أن العلوم الأخرى أقدم منه وأعرق.

أن استقلالية علم الاتصال وظهور كليات مختصة فيه، أتاحت المجال لظهور علماء مختصين تفرغوا له وكرسوا جل وقتهم لأبحاثه ونظرياته، وتطويرهم لنظريات ومناهج بحث علمية خاصة به، الأمر الذي ينتج تطور هذا العلم وتسارعه في السنوات الأخيرة. وبالتأكيد فإن انتشار وسائل الاتصال الجماهيري انتشاراً واسعاً بين الناس في هذا العصر، ثم اعتماد الناس عليها اعتماداً متزايداً، يشكل في حد ذاته دافعاً قوياً لازدياد الاهتمام بدراسة الاتصال وبدراسة ميادينه وتحليل ظواهره وآثاره، وتطوير فعاليته وأساليبه، خاصة وإن المعرفة في الاتصال أساسية لميادين علمية مختلفة.

مـاهية الاتصـال:

لقد أعطينا تعريفاً أولياً للاتصال حين ذكرنا بأنه العلم الذي يعنى بتبادل المعاني بين الأفراد عبر نظام مشترك من الرموز. ورغم ما في هذا القول من عمومية إلا أنه يؤكد أمرين أساسيين في الاتصال.

الأمر الأول: ويتعلق باستخدام نظام مشترك من الرموز وذلك يعني أن الرموز المستعملة في الاتصال يتعارف الناس على قبول معانيها لتعني للجميع شيئاً محدداً. بمعنى آخر فإن هذه الرموز يجب أن تكون ذات دلالة Significant symbols ومتعارف عليها اجتماعياً. وتعد اللغة أفضل نظام دلالي للرموز طوره الإنسان. إن الكلمات في اللغة تعني لأفراد المجتمع جميعاً الذي يتحدث تلك اللغة شيئاً واضحاً محدداً. فلو أخذنا كلمة (طاولة) مثلاً، فإنها الرمز اللغوي الذي يعني جسماً مصنوعاً من الخشب أو غير الخشب، له سطح تسنده أربعة أرجل ويجلس الناس حوله. وحين يتفوه الإنسان العربي بهذه الكلمات أو يكتبها فإن السامع أو القارئ لها يفهم المقصود منها، على أساس أن المجتمع العربي قد تعارف على استعمال هذا الرمز لتأدية ذلك المعنى.

أما الأمر الثاني: يتعلق بتبادل المعاني، ويعني ذلك أن تبادل الأفكار والمعلومات بين الناس ليس في الواقع إلا تبادلاً للمعاني المؤلفة من الرموز ذات الدلالة. الرموز إذن تمثل المعاني المتعارف عليها اجتماعياً والتي يتبادلها الناس لدى ممارسة الاتصال، لتحقيق التفاهم بينهم، وعلى هذا، فإنه يمكن عد الرموز ذرات الاتصال، التي يمكن جمعها وترتيبها بطريقة محددة قابلة للتفسير، تؤدي إلى إعطاء معنى، محدد، وتصل المرسل بالمستقبل (أي الشخص الذي

يرسل المعلومات بالشخص الذي يستقبلها وتجعل من تبادل الأفكار والمعاني أمر ممكناً.

وما أن يشرع الإنسان بمحاولة الاتصال مع الغير، سواء عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارة، وجميعها تعد رموزاً اتصالية، فإنما يشرع في إقامة علاقة مع الغير مع ذلك الإنسان، وتقوى هذه العلاقة وتزداد عمقاً وتأثيراً كلما كانت المعاني واضحة، مفهومة لدى طرفي العلاقة الاتصالية، وكلما كانت الرموز سهلة الفهم والتحليل بالنسبة لكليهما.

يبدأ الإنسان بممارسة الاتصال منذ اللحظات الأولى للحياة: فالطفل الوليد يبدأ تدريجياً بالاستجابة لحنان الأم معبراً عن رضاه بابتسامة صغيرة تشبع عاطفة الأمومة، وتسعد الأم بتلك الرموز الصماء، فتضم الصغير إلى صدرها وتطبع على وجنته قبلة تعبر بها عن استجابتها للمعاني التي حملتها تلك الرموز غير اللفظية. وتكبر المعاني لدى الطفل وتنمو معه نتيجة ازدياد خبراته ومشاهداته التي اكتسبها من بيئته الأولى (الأسرة) ثم من أقرانه في المحلة ومن المعلمين والزملاء في المدرسة ومن اللعب والمطالعة والتعرض لوسائل الإعلام وغير ذلك. ويزداد مخزون الفرد من المعرفة وبالتالي من المعاني التي يكون منها جملة أفكاره وأحاديثه، كلما أقدم على إقامة علاقة مع الآخرين.

إن إقامة علاقة اتصالية مع الغير هو في حد ذاته محاولة لتخطي الحواجز الفيزيائية التي تفصل الشخص عن الآخرين بهدف الاقتراب منهم ومن عوالمهم ويحدث هذا عبر سلسلة من الرموز تصنع منها المعاني لإيصالها إلى الآخرين ليتفاعلوا معها ويستجيبوا لها في أخذ وعطاء مستمرين ويطول تبادل المعاني أو يقصر بناء على الوضع الاتصالي نفسه، وعلى الهدف منه.

وينمو الاتصال مع نمو الإنسان ومع ازدياد خبراته ومعارفه وتكبر المعاني بتزايد الخبرات والمعارف والمشاعر، لكن جذورها تبقى ضاربة في الأعماق، أعماق النفس والمجتمع، وتختلف خبرة كل فرد عن الآخر ولو بدرجات، ولذا تبقى دائماً هناك حواجز تفصلنا عن الآخرين نسعى دائماً لاختزالها في عمليات من الاتصال مستمرة ولا تنتهي.

ويتخذ الاتصال أشكالاً عدة، فيكون تارة على مستوى شخصي- ذاتي ترى الفرد فيه يناجي نفسه مفتكراً حاسباً متأملاً. وتارة يكون مع إنسان آخر يتحاور معه مختصراً مسافات البعد والغربة التي تفصله عنه (الاتصال في الموبايل أو الأنترنت). وتارة أخرى يكون عبر وسيلة إعلامية فترى الفرد منصرفاً للإصغاء إلى المذياع والتفاعل معه أو التفاعل مع البرنامج الذي يستمع إليه رغم البعد الكبير الذي يفصله عنه. وفي المساء ترى المرء يجلس أمام جهاز التلفاز يشاهد أحداث العالم تمر أمامه مصورة، فينتقل وهو جالس على مقعد مريح باسترخاء عبر بقاع العالم متفرجاً على الأحداث المختلفة (كاجتماع القادة أو الزعماء، انفجار البراكين، أخبار الرياضة أو الطب أو برامج التسلية والترفيه). يتعلم منها ويضيف معلومات جديدة لمعارفه ويرفه عن نفسه وإحباطاته بالمسرحيات الهزلية ويتفاعل مع حركات التحرر الوطني ويحقد على الاستبداد والتمييز العنصري، ويقترب أحياناً مما يشاهد وينفر من بعضه الآخر، ويناقش مضامينه مع نفسه وأصدقائه ومعارفه، مثرياً محصلته من المعرفة والخبرات بمعارف وخبرات جديدة حققها الاتصال ووسائله التي أتاحتها التكنولوجيا الحديثة تكنولوجيا الاتصال.

نستدل مما تقدم أن الالتقاء الوجاهي (وجهاً لوجه) المباشر ليس شرطاً ضرورياً لإقامة العلاقة الاتصالية، ما دام هناك مرسل للمعلومات، منظور أو غير منظور، وما دام هناك متلق يستقبل تلك المعلومات ويحللها في عقله ويتفاعل معها ويستجيب لها بشكل أو بآخر، إن التفاعل مع المعاني والمعلومات هو الأساس، لأنه يعني أن المستقبل، رغم قرب الشقة أو بعدها قد أعطى جل انتباهه للمعلومات وعمل على تمثلها وفهمها والاستجابة لها.